

من أهمّ دراساتها كتابها : "دراسات حول شعريّة القصيدة العربيّة " Studien Zur Potik der Altara Bishen Qaside وفيه تقدّم منهاجاً جديداً لتناول الشعر الجاهلي، وهو منهج معاينة النصّ دون النظر إلى السياقات الذي افرزته والذي أنثو في منحى الدراسات الاستشراقية الألمانية حول الشعر الجاهلي.

وبدأت النظرة تتحول من الاهتمام بقضية الانتحال والشك في صحة هذا الشعر إلى ان أصبح الاهتمام منصبا على معاينة النصّ الشعري الجاهلي على انه "فنّ"، فضلا عن بحثين آخرين للمستشرقّة "ريناتا ياكوبي":
الأول: أصول شكل القصيدة "The Original of the Qasida Form".

الثاني : "الناقة " مقطعا من قصيدة المديح

"The Camel Section of the Panegyric Ode".

تقول ريناتا^(١): إنّ اصول القصيدة غير معروفة، فاغلب مجموعات النصوص القديمة المنقولة لنا من الجاهلية، وردت في نوعين من الشعر:
أولهما: المقطوعة المونوثيمية "Monothematic" التي تحتوي على موضوع واحد هو غالبا، رسالة موجهة إلى إنسان ما.

ثانيهما: القصيدة البولوثيمية الشكل "Polothematic" التي تشتمل على موضوعات مختلفة أنظمت إلى بعضها بعضا دونما إشارة إلى تخلُّص احدها من الآخر - أحيانا -، دونما سبب واضح لتتابع هذه الموضوعات فيها.

ثم تتابع القول: ان إطلاق مصطلح القصيدة على القصيدة خاصة، هو تقليد جرى اتباعه في الوسط العلمي الحديث . ففي الدراسات العربية الوسيطة أطلق

(١) جهود استشراقية معاصرة في قراءة الشعر العربي القديم - ريناتا ياكوبي نموذجاً - عبد القادر الرباعي: ٥٥.

مصطلح القصيدة على أي شعر مؤلف على واحد من البحور الشعرية، و ممتد إلى حد معين من الطول - على الأقل - سبعة أبيات أو عشرة حس بما اشار "ابن رشيق"^(١). وان مثل هذا الشعر يتطلب مهارة محترفة في الابداع تختلف عن مجرد التزيين، فالمصطلح مشتق من الفعل قصد - أي نوى وهدف الى - وعلى الرغم من ان نظريات متعددة قد طرحت لتوحيد حدّة^(٢) إلا أنه مازال مدار نقاش.

وترى.. انه لم تكن هناك - في بداية القرن السادس الميلادي - قواعد شعرية صارمة يقتدي بها الشعراء في تتابع الموضوعات داخل قصائدهم، على الرغم من ان هناك عددا من النماذج الشعرية التي يمكن عدها ذات قيمة تنظيمية عالية، بل إنّ بعضها ذو تنظيم فريد من نوعه . وفي الوقت نفسه، هناك نماذج معينة محببة للشعراء في كل انحاء الجزيرة العربية تسعى لان تضع نفسها في شكل ما لأن تبرز في نوع شعري خاص . وكان هؤلاء أول الأمر يبدأون بأشعار عشقية ترتد إلى ما يسمى بـ "النسيب"، ثم يأتي الحديث عن "الناقة" ووصفها بأبيات شعرية طويلة سميت بـ "الرحيل" "الرحلة". ويضيفون أخيراً أشعاراً تعد من الفخر تكون بمثابة المدح للذات، أو للقبيلة، أو تكون رسالة موجهة لعدو "هجاء"، أو انهم ينهون تلك القصائد بمدح شيخ القبيلة، أو أحد من ملوك "الغساسنة" أو "المناذرة"^(٣).

وتقرن "ريناتا" دراستها بالإشارة إلى من تصدى لدراسة أصل النموذج للقصيدة الجاهلية. ومن هؤلاء "جويدي Guidi" الذي ناقشها في باب الأدب المقارن^(٤)، اذ يُعَدّ الاستهلال العشقي للقصيدة متوافقا مع التقليد المتبع في الأدب اليوناني لنشيد

(١) العمد: ١٨٨/١.

(2) Jacobi, R. Studien Zur Potik der Altarischen, Qasida, Franz Stiener Wiesbaden, 1971, P;1.

(3) ينظر: جهود استشرافية معاصرة: ٥٦-٥٧.

(4) Guidi, I,IP "Nasib" Nella Qasida Araba in Actes du XIVE Siecle Congres International des Orintalistes, Alger, 1905, Vol.3, Paris, 1907, PP: 8-12.

الإنشاد المرفوع إلى الرمز في بداية الملحمة . وفي دراسة أحدث من ذلك، قارن "جونستون Johnstone" النسيب بشعر "المونونجور Mansongur" الآيسلندي^(١). وهو عبارة عن قصة شعرية قصيرة تقدم قصائد سردية في موضوعات تاريخية . وتردف "ريناتا" بأن هاتين الدراستين اللتين اعتمدتا على المقارنة تشيران إلى أنه ليس هناك في الأصل، علاقة بين "النسيب"، والموضوعات من بعده في القصيدة^(٢). وهناك دراسات أخرى اعتمدت على الفرضية بأن القصيدة البوليثيمية- متعددة الموضوعات- قد تطورت من فكرة مركزية إلى موضوع محوري . وفي عام ١٩٣٨ أوضح "ريختر Richter" أن القصيدة هي إسهاب لموضوع "النسيب"، واقترح بأن الموضوعات الأخرى في القصيدة- وبخاصة مدح الشاعر لنفسه- صادرة عن نيّة التأثير في محبوبته لكسب رضاها^(٣). لكنّ "بلوخ Bloch" في مقالته الشهيرة "قصيدة" المنشورة عام ١٩٤٨ يأخذ الموضوع الذي يلي النسيب على أنه نقطة البداية . فالقصيدة- حسب نظريته- هي عبارة عن رسالة مرسلة إلى شخص ما أو إلى قبيلة ما . أما الأجزاء السابقة على ذلك فهي عنده بمثابة "الريسلايد Reiselied" وهي "أغنية الرحلة" التي تؤلّف لامتاع المبعوث في سفرته الطويلة المتعبة^(٤). وفي نظريته هذه يصعب توضيح كلّ نواحي القصيدة، لكنه يجلب الاهتمام إلى نقطة واحدة مهمة هي "الوظيفة الذكورية للنسيب" في مرحلة ما قبل الإسلام بشكل عام. وتشير "ريناتا" إلى أنّ معظم الاستهلاكات العشقية للشعر ما قبل الإسلام تحتوي على أسماء أماكن، وانها ترد بحافزية وبراعة منسجمة مع اختيار الشاعر

(١) Johnstone, T. Nasib and Mansongur, Journal of Arabic Literature (JAL), Vol.3, 1972, PP: 90-95.

(٢) ينظر: جهود استشرافية معاصرة: ٥٨.

(٣) Richter, G "Zur Entstehungsgeschichte der Altarabischen Qasida, Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, Gesellschaft, (ZDMG), Vol.2, 1938, PP: 552-569.

(٤) Bloch, A: "Qasida" Asiatische, Vol, 2m, 1948, PP: 106-132.

لموضوعه^(١). لكن "بلوخ" يرى ان هذه الأسماء يمكن ان تعود أصلاً إلى أماكن تزورها القبائل، كي يمكن تذكرها ببسر وسهولة^(٢).

وهناك وجهتا نظر - بهذا الصدد - لعالمين آخرين هما بلوخ وبلاشير، إذ يفترض "بلوخ" بان "القصيدة الاصل قد فقدت وليس هناك سوى جزء غير تام يبق دالا على شكل للقصيدة كان متحد الاجزاء وذا معنى . وأما بلاشير فيفترض أنّ قصائد ما قبل الإسلام قد تغيّرت وتعدلت اثناء نقل الرواة لها على وفق نموذج القصيدة المنظم الذي تطور من العصور الاسلامية. ويمكن القول، ان رأي "بلاشير" يتطابق مع ما جاء به "ابن قتيبة" بشأن النسيب^(٣). لكن "ريناتا" فلا تتفق مع الوجهتين، من حيث أنّ "القصيدة المثل" لا يمكن ان تكون قد فقدت للأبد، وان النصوص التي ظهرت منتظمة واعطت الانطباع بتماسك اجزاء القصيدة فيها، لا يمكن ان تكون قد عدلها الرواة تمشياً مع النموذج المتطور في المرحلة الإسلامية^(٤).

ويبدو ان تتابع موضوعي "النسيب" و "الرحيل" قد شاع بشكل واسع لدى الشعراء، اما الموضوعات الأخرى، فلم تلاق شيوعاً مماثلاً، بل كان توافقاً قليلاً جداً . وعليه.. يمكن افتراض أنّ التقليد المتبع في القصيدة قد ظهر في النصف الاول من القرن السادس الميلادي، وهذا يعني أنّها قد بدأ قبل ذلك بزمان . وهذا يدل على أنّ البناء الثلاثي للقصيدة قد أصبح ذا قبول واسع . وأنّ هناك تقديراً عالياً للتلاحم في القصيدة، وان موضوعاتها أصبحت أكثر تقارباً وتفاعلاً، ويلاحظ ذلك في أنواع معينة من "التخلص" تطورت في نهاية القرن السادس الميلادي.

(١) جهود استشرافية معاصرة: ٥٩.

(٢) جهود استشرافية معاصرة: ٥٩.

(٣) Blachere, Regis, Histoire de la Littérature Arabe des Origins a la Fin du xve Siecle de J.c3, Vol, 5, Arden- Maisonneuve, Paris, 1952, 1964, P. 184.

(٤) ينظر: جهود استشرافية معاصرة: ٥٩.

وتطرح "ريناتا" نظريتها- التي تعترف بأن بعضها حدسي تخميني- اذ تقترض، "ان القطعة واحدية الموضوع تتقدم القصيدة في الشكل، فقد برزت بعض وحدات الموضوع أو عناصره بأنواع ادبية مستقلة، انضمت بعضها إلى بعض عن طريق الوزن والقافية" ^(١). وهذا الامر يعتمد على ملاحظتين ؛ أولاها : أن هناك اهتماما متزايدا بشأن تأليف الصيغ والعناصر الدقيقة، والنواحي الاسلوبية داخل الوحدات الموضوعية للقصيدة، اكثر من الاهتمام ببناء القصيدة على نحو كلي. وهذا يعني ان هناك نموذجاً تقليدياً اخذ بنظر الاعتبار عند تأليف الاشعار ذات النموذج المنوئيمي- احادي الموضوع- قبل ان تتطور. وفي الثانية نقرأ أن الاهتمام بالاشعار ذات الشكل الاحادي التي تعتمد في وجودها على الموضوع الاخير، ليس منصبا على محتواها فحسب، ولكنه ممتد أيضاً إلى الصيغ التي وردت فيها، انها رسائل موجهة ضد الاعداء، واماديج مرفوعة إلى شيخ القبيلة ^(٢).

اما بالنسبة للنسيب، فهو مجال للتأمل مادام العصر الجاهلي لم ترد عنه قصائد مستقلة في الحب.

ولكن من غير المعقول ان الشعراء البدو لم يؤلفوا قصائد حب مستقلة عن غيرها من الاغراض كي تنشد أو تغنى..!

وتقول "ريناتا" بشأن تتابع موضوعي "النسيب" و "الرحيل" من وجه، ثم "الرحيل" والموضوع بعده من وجه اخر، إنّ هذين الوجهين تطورا على نحو مستقل فيه كل واحد منهما عن الآخر. لذا يجب عدّهما وتحليله ما على انهما وجهان مختلفان في تأريخ النوع الشعري. فتتابع "النسيب" ف"الرحيل" قد سبق تتابع "الرحيل"،

^(١) ينظر: جهود استشرافية معاصرة: ٦٠.

^(٢) ينظر: جهود استشرافية معاصرة: ٦١.

فالموضوع بعده بوقت زمني ابرك كثيرا. أما تتاسق القصيدة بأجزائها الثلاثة، فلم يتم
الا في المرحلة الاخيرة من العصر الجاهلي^(١).

ويؤيد هذه الوجهة نماذج مختلفة "للتخلص" من موضوع لآخر وأنّ هناك
ثلاث طرائق فنية اساسية است خدمت شعريا في مراحل زمنية متصلة ؛ في الأولى
كانت وحدات القصيدة يتلو بعضها بعضا من غير علاقة أو دليل يشير إلى تغير
الموضوع، وهو أسلوب عادي تماما كما في موضوع الفخر - على سبيل المثال - اذ
كل صيغة جديدة فيه تبدأ "بواو رب" أو حرف "قد". وأما في الثانية فباستخدام ألفاظ
دليلا على التخلّص مثل: "دع ذا" و"عدّ.... وسرّ الهمّ، وغيرها . وأما في الثالثة:
فيكون "التخلص" بمعنى مناسب يكشف عن دوافع الشاعر النفسية لتغيير موضوعه،
أو يقدّم ربطا بين الموضوعات المختلفة^(٢).

لقد اكتمل الشكل المدحي للقصيدة في الزمن القريب إلى نهاية العصر
الجاهلي، أي قبل ظهور الإسلام مباشرة، وخير من يمثل هذا الاكتمال الشكلي
"معلّقة النابغة الذبياني" في مدح "النعمان" ملك الحيرة.
يادار مية بالعلياء فالسندِ أقوت و طال عليها سالف الأمد^(٣)

ولكن لماذا يكون بعد ذكر "النسيب"، وصف ل"الناقة"، وكأنه غدا امرا تقليديا
متعارفا عليه لدى الشعراء. إذ تفترض "ريناتا" ان نوعين شعريين مستقلين ضمّا إلى
بعضهما بعضا هما : شعر الحب ، شعر الفخر . الذي احتل فيه موضوع "الناقة" -

(١) ينظر: جهود استشرافية معاصرة: ٦٢.

(٢) ينظر: جهود استشرافية معاصرة: ٦٣.

(٣) ديوانه: ١٦.

على الأغلب- المكان الأول، كما توضحه النصوص الكثيرة^(١)، بل استمر الرحيل حتى في القصائد الإسلامية الأولى يقدم بأسلوب الفخر^(٢). ولكن.. ما الداعي لتنظيم شعر الحب ومدح الذات معاً؟ فيمكن الأخذ بنظر الاعتبار الطبيعة المعينة لشعر الحب قبل الإسلام، أي نوعية "شعر الحب" المحفوظ جزءاً من القصيدة، وذلك يعود لحقيقة حياة الشعراء وانهم عندما ينظمون شعراً في الحب والنسيب يتحدثون عن الماضي حديثاً عن حب انتهى منذ زمن طويل، أو في طريقه إلى ذلك سواء كان الانتهاء بسبب المحبوبة أو الشاعر نفسه، إلا أنه ليس هناك اشعاراً غزلية تعبر عن الأمل في إمكانية توحيد الحبيبين مستقبلاً. وما تعبر عنه تلك الأشعار مجرد ذكرى سعادة ماضية، كانت بسبب التجاوز بين القبائل في التخيم معاً في فصل الربيع، ثم يضطرون للافتراق حين ترحل القبائل ويبتعدون عن بعضهم.

وهذا الأمر سبب المشكلة الأولى لدى المحبين، وكان عليهم مواجهته، لأن الشاعر أو المحب لا يتمكن من خطب الود لضيق الوقت، لذا كان عليه الإسراع في التوحد مع الحبيبة، فكان ذلك الموضوع الرئيس في "النسيب"^(٣).

وكان الأمر يصعب على الشاعر وعزة نفسه، إن كانت المرأة هي من ينهي تلك العلاقة، أو إذا كان قد تقدمت فيه السن، فإن حديثه يصبح أكثر إيلاماً بسبب دوافع اليأس والاحباط التي تتناوبه بسبب النهاية المحزنة والفراق، فكان سهلاً - في الاطلاع - أن يستثير عواطفه وتذكر أيام اللقاء. فهي إذن حالة عقلية تستدعي التعويض، وكانت أفضل الوسائل للشاعر كي يستعيد توازنه هو التفكير في مزايا

(1) Jacobi, R. Studien zur Potiik der Attanabischen Qasida, Franz Steiner, Wiesbaden, 1971, PP:54-66.

(2) Jacobi, R: (The Camel-Section of the Panaggrical, ode), Journal of Arabic Literature, col.13, 1982, PP: 1-12.

(3) ينظر: جهود استشرافية معاصرة: ٦٦-٦٨.

نفسه الخاصة. فكانت الخطوة الاولى "الناقة" التي تسليه ويشعر بالفخر في امتطائها وركوب الصحراء.

فتعرض "ريناتا" ذلك الامر بمعالجة قصيدة "عبيد بن الابرص" مفتخراً وذاكراً الشباب، حيث يستهلها بالقول:

يا دارَ هندٍ عفاها كلُّ هطّ الـ	بالجو سحيقِ اليمنة البالي
جَرتُ عليها رياحُ الصيفِ فاطردتْ	والريحُ فيها تعفيها بأذيال
حبستُ فيها صحابي كي أسألها	والدمعُ قد بَلَّ مني جيبَ سربالي
شوقاً إلى الحيّ أيامَ الجميعُ بها	وكيف يطربُ أو يشتاقُ أمثالي
وقد علا لِمَتي شيبٌ فودّ عني	منها الغواني و دَاعَ الصارمِ القالي
وقد اسلي همومي حيث تحضرُ ني	بجسرةٍ كعلاءِ القينِ شِ ملال ^(١)

فالقصيدة .. متوازنة على نحو مثالي، فالحركة فيها ليست بخط مستقيم، ولكنها دائرية: هناك خسارة وتعويض، وهمّ وعزاء، لكن الشاعر ينتصر على حالته السوداوية التي انتابته برفع قيمة ذاته، وذلك بتلميحہ إلى التناقض بين بياض شعره في الوقت الحالي، وخصلات شعره السوداء في السابق حين يختتم قصيدته قائلاً:

بان الشباب فألى لا يُمُّ بنا	واحتل بي من مشيبٍ أيّ مح لال
والشيبُ شينٌ لم ن يحتلُّ ساحتَه	لله درُّ سوادِ اللَمِّ ة الخالي ^(٢)

ويتداعى لريناتا سؤال آخر - بهذا الصدد- إذ لماذا أضاف الشاعر موضوع المديح، أو أي موضوع اخر لموضوع "الناقة" حسب اهتمام الشاعر الشخصي أو

(١) ديوانه: ١٠٨.

(٢) ديوانه: ١١١.

السياسي وقت إنشاء القصيدة. فتجد "ريناتا" الأمر واضحاً في قصيدة "المسيب" التي وجدت في القرن السادس الميلادي، اذ اتبع الرحيل موضوع المديح لـ "الققعاع بن معبد" شيخ قبيلة "تميم" المشهور بكرمه، الذي يرسله رسالة مع الرياح بعد ان يقطع رحلته على ناقة قوية يصفها بكل صفات القوة والجمال والسرعة، وكان قد استهلها قائلاً:

أرحت من سلمى بغير متاع	قبل العطاس ور عتّا بو داع
إذ تستبيك بأصلتي ناعم	قامت ل نفس ه بغير قناع
فأريت أنّ الحكّ م مجتنّب الصّ با	وصحوت بعد تشوق ورواع
فتسلّ حاجتها إذا هي أعرضت	بجّ لالة س رحّ اليدين و ساع
فلأهدين مع الرياح قصيدة	من ي مغلّة إلى الققعاع
وإذا الملوك تدافعت أركانها	أفضل ت فوق أكفهم بذراع ^(١)

فيضيف موضوع المديح من دون تخلص لموضوع "الناقة" إحساساً منه بعدم الحاجة إلى ربطه مع مقطع الناقة . وبذا تبدو قصيدته مكتملة ومتوازنة توازناً حسناً في جميع اجزائها، وانها تمثل البناء الأصلي لقصيدة المديح.

وتتخذ "ريناتا" من قصيدة "النابعة الذبياني" التي أدخلت في نسخ المعلقات، الخطوة التالية في توثيق تاريخ النوع الشعري الذي تناقشه بموضوعاتها الثلاثة : النسيب ، الرحيل ، المديح . ففيها تقدم ملحوظ في تناسق الأجزاء ، مقارنة بقصيدة "المسيب" السابقة، وأن قصيدة "النابعة الذبياني" تمثل أعلى درجات "الوحدة الشكلية"^(٢) التي أنجزت في قصيدة المديح الجاهلية. وقصيدته هي:

(١) المفضليات: ٦٠-٦٣.

(٢) ينظر جهود استشراقية معاصرة: ٧١-٧٥.

يا دار مية بالعلياء فالسن د اقوت وطال عليها سالف الأبد
وقفت فيها اصيلانا اسائلها عيت جوابا وما بالربع من احد (١)

إلى أن يقول في مقطع الرحلة:

فعدّ عمّ ا ترى إذ لا ارتجاع له وانم القتود على عي رانّة أجد (٢)

ثم يصل إلى الممدوح:

فتلك تبغني النعمان أن له فضلا على الناس في الأدنى وفي البعد (٣)

فبعد ان يقف على الاطلال ويصفها ويتذكر الايام، كانت وظيفة "النسيب" هي نفسها في قصيدة "عبيد بن الابرص" في استثارة الذكريات، لكنها عند "النابعة الذبياني" اكثر ارتباطا بالموضوعات بعدها، وقد احسن التخلص بين المقاطع، وقد وصل بين "النسيب" و "الارتحال" بطريقة تشكل تنابعا سرديا للاحداث، على حين كان "عبيد بن الابرص" يتكلم عن الهموم العامة التي تحتاج ان يسلوها بالارتحال، واذا ما أراد التخلص إلى "المديح" استعمل كلمة "فتلك" التي تتضمن التصور بأنه كان في طريقه إلى الممدوح.

ولكن نظل مقاطع القصيدة العربية "النسيب" و "المديح" من دون أدنى تغيير بصفتهما وحدتي بناء للقصيدة، بينما كان التغيير في الجزء الثاني "الناقة" (٤) من

(١) ديوانه: ١٤.

(٢) ديوانه: ١٦.

(٣) ديوانه: ٢٠.

(٤) The Camel-Section of the Panaggrical ode", Journal of Arabic Literature, Vol, XIII, Leiden, E. J. Brill, 1982, PP:1-12.

القصيدة منذ عصر ما قبل الاسلام حتى العصر العباسي، تغييراً جوهرياً. وذلك يعود للقول على الرغم من ان "النسيب" و "المديح" قد برزا في وجوه متعددة من التطور والتغير الداخلي، وانهما استمرّا يشكلان عنصرين جوهريين في النوع الاسلوبي للقصيدة. اما موضوع "الناقة" الذي كان نواة للفخر القبلي، وذا وزن كبير ثم اصبح الجزء الموسع في قصيدة المديح، قد تغيرت وظيفته اولا، ثم بدأ ينضب بالتدريج حتى اختفى اخيرا، مع انه كان اهم جزء في القصيدة^(١).

وتجعل "ريناتا" نص "ابن قتيبة" مدار بحثها - هاهنا - اذ ترى انه من غير الضروري معرفة الزمن الذي اخذ منه "ابن قتيبة" نموذجة وعما اذا كان هذا النموذج قد شكل مقياسا معياريا اتبع في يوم ما.

فمما ظهر في الدراسات الحديثة أنّ "ابن قتيبة" قد وصف نوعا محددا من القصيدة هو "قصيدة المديح" على أساس انها النوع الاسلوبي - ماعدا المراثية - الذي استمر حيّاً في عصره . وإنّ توصيف "ابن قتيبة" لـ "النسيب" على أنّه: مؤلف من وصف الديار الدارسة، والبكاء على فقد المحبوبة، لا يعني استنفاد كل العناصر المحتملة الأخر التي استخدمها الشعراء^(٢). واستبعاد ان يكون وصف "ابن قتيبة" مناسباً لأية قصيدة في زمن ما قبل الإسلام، وانه يناسب نماذج مختلفة من القصائد التي طورها الشعراء في العصر الأموي.

وأنها في تحليلها للنصوص المبكرة تراها لا تعطي قاعدة يمكن الاستناد إليها حتى لو كان الميل إلى قبول معظم المواد الشعرية المبكرة على أنّها صحيحة وسليمة، مع عدم استبعاد إمكانية التزييف أو النحل أو الانتحال في حالات فردية معينة.

(١) جهود استشراقية معاصرة: ٨٥.

(٢) جهود استشراقية معاصرة: ٨٦-٨٨.